الفصل الحادي عشر

العوامل الاجتماعية النفسية فى تفسير الجريمة *

تسير دراسة العوامل السببية فى علم الاجرام فى اتجاهات ثلاث: تلك التى تتناول العوامل البيولوجية، وتلك التى تتناول العوامل الاجتماعية ، وأخيراً التى تتناول العوامل النفسية . وهذا الفصل وإن كانت تجيزه الرغبة فى التبسيط إلا أن الاتجاه الذى أخذناه منذ البداية فى هذا الكتاب هو تأكيد عملية التفاعل بين الفرد وبيئته المادية والاجتماعية . وفيما يلى عرض لأهم هذه النظريات الاجتماعية النفسية دون الفصل بينها :

١ ـ التحضر والتصنيع :

من أهم ما أدت اليه الثورة الصناعية فى أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن التاسع عشر نتيجة لقيام الصناعات الثقيلة وحشد عدد كبير من العمال فى المصانع ، تحول كثير من المجتمعات من مجتمعات ريفية إلى مجتمعات حضرية ، وهجرة أهل الريف إلى المدن حيث اتسع مجال العمل . وهذا ما نشاهده حاليا فى كثير من البلاد النامية التى تخطو بخطى واسعة نحو التصنيع .

---

* استعنا فى كتابة هذا الفصل بمحاضرات أولانيكوبست ـ محاضرات غير منشورة لطلبة دبلوم التخصص فى العلوم الجنائية ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وبالتقرير الثانى عن بحث ديناميات الأسرة وجناح الأحداث الذى يقوم به معهد تنمية العلاقات الانسانية بأمريكا والذى تقوم وحدة البحوث النفسية بالمركز بمثيل له .

وتتميز الحياة فى المدينة لزيادة الكثافة السكانية فيها بأن العلاقات بين الأفراد لاتقوم فيها دائما على أساس العلاقة وجها لوجه كما هو الحال فى القرية حيث يعرف الأفراد بعضهم بعضا . وتضم الأسرة فى الريف الأب والأم والخالات والعمات ومن اليهم ، أما فى المدينة فقد أدى التزاحم إلى صغر حجم الأسرة بقلة النسل وانحلال روابط القرابه بتشتت أفراد الأسرة . ويرى علماء الاجرام أن الكثافة السكانية فى المدينة وتشتت أفراد الأسرة من العوامل التى تساعد على زيادة الجريمة لصعوبة التعرف على الجانى فى مجتمع لا تقوم فيه العلاقات وجها لوجه إذ كم من أسرة فى عمارة سكنية تظل مدة دون أن تتعرف على جيرانها .

ومن أهم المظاهر النفسية لحياة المدينة بعد الهجرة اليها الشعور بالعزلة والوحدة وفقد الشعور بالأمن لعدم الشعور بالانتمائية مما قد يؤدى إلى كثير من الاضطرابات النفسية إذ بينت كثير من الدراسات أن نسبة الأمراض النفسية والعقلية ترتفع بين المهاجرين من الريف إلى المدن . وقد يؤدى الشعور بالعزلة إلى تجمع أبناء الاقليم الواحد فى حى واحد مما نشاهده من تركز أبنـــاء الصعيد فى القاهرة والاسكندرية فى أحياء معينة . أما إلى أى حد يؤثر الشعور بالعزلة أو التجانس بين أبناء الاقليم الواحـــد فى الحى السكنى إلى الجريمة فهذا ما لم تبينه الدراسات .

ومن مظاهر الحياة فى المدينة اختلاف التناسب فى التوزيع السكانى فى المدينة بزيادة الكثافة فى بعض الأحيـاء دون الأخرى ، واختلاف التكوين الجنسى والعمرى إذ يكون المهاجرون من الرجال فى العادة أكثر عددا من النساء . والمثل واضح أيضا فى أبناء الصعيد إذ يترك الرجال الأبنـاء والنساء خلفهم سعيا وراء الرزق فى المدينة كما أن الهجرة تكون عادة أعلى بين صغار السن . فاذا ما استقر

صغار السن فى المدينة بالزواج والانجاب صحب ذلك تغير حتمى فى التقاليد والعادات مما يؤدى إلى اختلاف معايير الجيل الجديد عن معايير جيل الآباء المستمدة من ثقافة الموطن الأصلى. ويرى كثير من العلماء أن هذا العامل يؤثر فى ارتفاع نسبة الانحراف والجريمة. على أننا يجب أن ننبه ثانياً إلى ضرورة مراعاة هذا العامل فى ضوء العوامل الأخرى التى تؤثر فيه وتتأثر به.

ومن مظاهر حياة المدينة التمايز فى الدخول وما يتبع ذلك من التعرض لأغراء المنتجات المادية فكلما تنوعت المنتجات مع حرمان أبناء أصحاب الدخول المحدودة منها كلما زاد الاغراء على سرقتها فى رأى البعض. ويفسر فى ضوء هذا الرأى جرائم سرقات الأحداث من المحال التجارية وجرائم سرقة السيارات أو تجريدها من ملحقاتها ... وما إلى ذلك.

وفى رأى البعض أن الجريمة تسير جنبا إلى جنب مع الرخاء الاقتصادى لأنه لا يوجد من الأدلة ما يدل على ارتفاع نسبة الجريمة كلما زاد الرخاء الاقتصادى. غير أننا لا يمكن أن نعتبر الرخاء فى حد ذاته من أسباب ارتفاع الجريمة لأن الرخاء نفسه قد يكون مصحوبا بالتصنيع، واعادة تكوين بناء الأسرة والمعايير الجديدة للسلوك وما إلى ذلك التى قد تكون لها آثارها الفعالة.

٢ — مناطق الانحراف :

شاهدت العشرينات سلسلة من الدراسات الايكولوجية قامت بها جامعة شيكاغو قام بها روبرت عزرا بارك وأتباعه. والدراسات الايكولوجية كان يقصد بها فى الأصل أثر الظروف الطبيعية كالتربة والمناخ على نمو الكائنات الحية كالنبات والحيوان. استعار علماء الاجتماع هذا المصطلح ويقصدون به العلاقة بين ظروف البيئة الطبيعية وطريقة سلوك الأفراد. وتعرف الايكولوجية الاجتماعية « بأنها

العلاقات القائمة بين الأفراد الذين يشتركون فى الموطن والتى ترتبط بهذا الموطن وتعتبر من خصائص الإقامة فيه ، فهى دراسة البناء الاجتماعى من ناحية البيئة المحلية » .

وفى سنة ١٩٢١ قام كليفورد شو بتحديد المناطق السكنية لمائه ألف من تلاميذ المدارس المنحرفين ومن المجرمين الكبار فى مدينة شيكاغو، وأخرج فى سنة ١٩٢٩ نتيجة دراسته، ويعتبر كتابه كلاسيكيا فى الميدان . لقد وجد شو أن معظم أفراد عينته يتركزون فى مناطق معينة ملاصقة للأحياء التجارية والأحياء الصناعية . وانتهى إلى أنه مادام المنحرفون من أفراد عينة يتركزون فى هذه المناطق فمن الممكن التسليم بأن السلوك المنحرف يرتبط بمواطن اجتماعية معينه ترتبط بدورها بالنمو الطبيعى للمدينة . فالمناطق التى تكون فى عملية تحول من مناطق سكنية إلى مناطق تجارية تخلق أنماطا اجرامية تشكل اتجاهات وسلوك الأفراد الذين يعيشون فى المنطقة وتتحول المنطقة إلى منطقة للانحراف .

أما كيف يتم تعلم السلوك المنحرف ، فقد أوضحه شو بدراسة خمسة أخوة كانوا يعيشون على ضفات نهر شيكاغو، بدأ الانحراف معهم كلعبة يلعبونها مع غيرهم من الأطفال ممن لهم نفس الظروف، فبدلا من الذهاب إلى المدرسة يتسكع الاخوة وأصدقاؤهم لسرقة أشياء تافهة من الحوانيت ، ودعم هذا السلوك المبكر الأنماط الخلقية السائدة بين المحيطين بهم من الكبار، مع ضعف أثر الأسرة، وعدم وجود الوقت الكافى لدى الآباء للسيطرة على الأبناء . وهكذا أخذ الأولاد بالتدريج ينحدرون إلى الجريمة .

انتقدت دراسة شو وزملائه فى أنها لم تدرس سوى حالات الانحراف التى ظهرت أمام المحاكم ، وانها لم تدرس مدى نشاط رجال البوليس لا كما ولا نوعا

وأن كثيراً من الجهات كانت ترعى حالات الانحراف التى كانت تقدم للمحاكم ، وبالتالى لم تكن احصائيات المحاكم مضبوطة ، وأن الأحياء فى مدينة شيكاغو كانت تختلف من حيث التكوين العنصرى، وهذا له أثره فى معاملة رجال البوليس لأبناء الأجناس المختلفة ، وأن التقسيم الذى وضع لبيان اتجاهات نمو المدينة قد لا ينطبق على نمو مدينـــة أخرى ، كما أنه لم يفرق بين مناطق تفريخ المنحرفين والمناطق التى يتم فيها النشاط المنحرف.

ففى دراسة لحسن الساعاتى للحصول على رسالة الدكتوراه فى سنة ١٩٤٦ بين أن الأحياء المتخلفة فى القاهرة مثل باب الشعرية وبولاق تنخفض فيها نسبة من يتم القبض عليهم، وهذا يعزى إلى أن الأحداث المنحرفين ينزحون إلى الأحياء القريبة المتقدمة إقتصاديا للقيام بنشاطهم حيث يتم القبض عليهم . وقد سمى المناطق الأولى بمناطق التفريخ أو الطرد ، وسمى المناطق الأخرى بمناطق الجذب كحى عابدين والموسكى .

وفى بحث الدكتوراه للسيد عويس حاول تطبيق مفهوم مناطق الانحراف على مجتمع غير غربى (فى مصر) وفى رأيه أن مفهوم «منطقة الانحراف» يبدو أن له فائدته على الرغم من الانتقادات التى توجه اليه. غير أنه يحذر من استخدام المفهوم لتبسيط مشكلة الانحراف والجريمة، ويبين أن المفهوم قد يكون له فائدته فى البحوث الجنائية إذا ما أدخلت عليه التنقيحات اللازمة .

لقد كان الفرض الذى تقدم لتمحيصه الدكتور عويس فى رسالته هو أن التحضر فى مصر يصحبه ظهور مناطق ينطبق عليها نمط المناطق المتخلفة كما يعرفها شو وزملاؤه فى المجتمع الأمريكى على الرغم من الاختلافات فى البناء العام للمجتمعين كما تبينها دراسة مقارنة لمناطق الانحراف فى بوسطن والقاهرة .

لقد تمت المقارنة بين حي دوكسبرى فى بوسطن وحى بولاق فى القاهرة .

وتتلخص أهم النتائج التى توصل اليها فيما يلى :-

١ - إختلاف البناء الاجتماعى عموما فى كل من المجتمعين المصرى والأمريكى وفى مجتمعى بولاق ودوكسبرى على الخصوص .

٢ - تنطبق الخصائص التى تميز مناطق الانحراف - فيماعدا خاصيتين - على كل من المنطقتين وهاتان الخاصيتان هما أن المنطقتين ليستامن المناطق الآخذ فى التدهور السكانى . وأن منطقة بولاق تتميز بالتجانس النسبى .

٣ — هناك خصائص مشتركة بين المنطقتين، غير أنها تختلفان أيضا والاختلاف هنا فى الدرجة لا فى النوع .

٤ — يقترف معظم المنحرفين فى بولاق جرائمهم ضد الأشخاص بينما يقترف معظم المنحرفين فى دوكسبرى جرائمهم ضد الممتلكات ، كما أن الجرائم الجنسية والعربدة نتيجة لشرب الخمر وسرقة العربات غير معروفة فى منطقة بولاق (يلاحظ أن هذه النتائج تتعلق ببيانات جمعت سنة ١٩٥٥) وقد يكون الحال قد تغير حاليا .

٥ — على الرغم من اختلاف التحضر فى الثقافتين غير أنهما تتشابهان فى إنتاج مناطق الانحراف، ويقدم الباحث فرضا بأن الأنواع المختلفة من التحضر قد تؤدى إلى أنماط مختلفة من السلوك المنحرف .

والخلاصة أنه وإن كان مفهوم مناطق الانحراف مفهوما يصلح كنقطة بداية لدراسة الجريمة والانحراف إلا أنه يجب ألا ينظر إلى هذه المناطق على أنها السبب فى وجود الانحراف .

٣ – العصابة :

أكد بعض العلماء أهمية الجماعة الصغيرة التى ينتمى اليها الحدث كعامل من عوامل التنشئة المضادة للمجتمع فتراشر(١٩٣٦)وهوايت(١٩٤٣) قد وصفا هذه التنظيمات المعقدة وصفا مسهبا . وقدمت عدة نظريات لشرح لماذا توجد مثل هذه الجماعات وكيف تتخذ شكلها والمراحل التى تمر بها للمران على الانحراف .

وقدم كوهين Cohen (١٩٥٥) إحدى هذه النظريات التى تؤكد أن الخاصية الواضحة للعصابة كثقافة فرعية هى معارضتها لبعض القيم السائدة لمجتمع البالغين المحترم . وهذا الاتجاه السلبى الذى يسود أفراد العصابة يجد تعبيراً له فى السلوك المنحرف كالتخريب إذ كثيراً ما يصحب السرقة التخريب . ويعتبر كوهين هذا السلوك كنوع من الاحتجاج الموجه ضد المجتمع الذى يضع العمال وأبناءهم فى ظروف من الحرمان . ويرى كوهين أن السلوك المنحرف يعوض أبناء المحرومين الفرص التى لا يجدونها فى مكان آخر .

ويسلم كوهين بذلك أن المجتمع الكبير يلعب دوراً سلبيا فى عملية « تعليم » الانحراف .

ويرى آخرون من أمثال شو أن هذا التسليم لا ضرورة له . ففى رأيهم أن الاتجاهات الاجرامية والسلوك الاجرامى يتم تعلمها ببساطة من الصحبة كغيرها من الاتجاهات والسلوك وليس من الضرورى أن يتم تعلم السلوك للانتقام ما دام سلوكا منحرفا وغير اجتماعى .

وتتوسط نظرية سذرلاند المعروفة بالرفقة المتمايزة بين نظرية الاحتجاج الاجتماعى ونظرية التعلم البسيط الذى ينادى بها شو . إذ يرى سذرلاند أن المجرم يتعرض لجماعات مختلفة ، بعضها يناصر الجريمة بينما الأخرى تعاديها ، وثالثة

لمحايدة . ويتعلم المجرم السلوك الاجرامى من كل من يعرفهم ، فالمجرم المحترف على سبيل المثال ، جزء من عالم الجريمة وهو عضو فى المجتمع الأكبر . قد يترفع على جيرانه لأنه لا يهمه الاعلان عن حرفته ، وهو على وفاق مع غيره من اللصوص لتبادل الخدمات والمعلومات الفنية والتحدث معهم - وهو يستمد أيضا مركزه المهنى وذاتيته من عضويته فى هذه الجماعة، كما أنه يكون عملاء له سوف يسرقهم حين يحين الوقت، كما أن له صدقات من بين غير المجرمين ممن يتقبلونه كفرد على الرغم من معرفتهم أنه لص. وله ترتيباته التعاونية مع رجال البوليس غير الأمناء، وهو عضو مكتمل الحقوق فى المجتمع الأكبر ، فتعلم السلوك المنحرف يتم فى كل علاقة من هذه العلاقات بما فى ذلك العلاقات مع غير المجرمين».

٤ - الطبقة الاجتماعية :

تكلمنا فى عرضنا للأسس البيولوجية النفسية والأسس الاجتماعية النفسية عن «المركز» كحاجة ونتيجة لعملية التنشئة الاجتماعية، وقد ذكرنا أن الفرد يقارن نفسه بغيره، ويقوم أفراد المجتمع بمقارنة الأفراد بعضهم ببعض . وهذه المقارنات تتضمن حكما أو تقديراً لدرجات الأفراد بالنسبة لبعضهم البعض . كما ذكرنا أن المجتمع يحدد أدواراً للأفراد وتتم المقارنة بين الأفراد فى هذه الادوار . فبعض الأدوار تعتبر مهمة عن غيرها وهكذا تنشأ فكرة المركز . فالمركز هو المرتبة التى تحددها الجماعة لدور من الأدوار أو مجموعة من الأدوار . والعملية التى يتم بها ترتيب الأفراد أو الجماعات تبعا للمركز فى شكل هرمى متدرج يعرف بالتقسيم الطبقى. والمجتمع الطبقى فى العادة تتكون قاعدته الهرمية من الطبقة الدنيا التى تكون الغالبية وفى قمته تكون الطبقة العليا التى تكون قلة عددية وأهم خصائص الطبقة الاجتماعية هو مكانتها الاجتماعية بالنسبة للطبقات الأخرى من حيث أنها أقل أو أعلى منها .

وكما يقول أوجبرن ونيمكوف : « ما يصعب تحديد مفهوم الطبقة الاجتماعية بعض الخلط فى استعمال المصطلحات ، وقد يستعمل مصطلح الطبقة بالتبادل مع مصطلح المركز . هذا بالاضافة إلى أن الطبقات قد تعرف بأنها الطريقة التى يصنف بها الأفراد أنفسهم . أو قد تعرف طبقا لبعض المحكات الموضوعية مثل المهنة والدخل . والنزعة فى بعض الدراسات الأمريكية هى تصنيف الأفراد طبقا لتقديرهم لأنفسهم من الناحية الاجتماعية ، أو طبقا للطريقة التى يرتبهم بها الأفراد الآخرون فى المجتمع ، ويجعل مثل هذا التحديد التمييز الحاد بين الطبقات صعبا ، كما أن هناك نسبة كبيرة من الناس تضع نفسها فى الطبقة المتوسطة ...

ويرى أوجبرن ونيمكوف أن أدق الأساليب هو تحديد الطبقة باتخاذ محك موضوعى مثل الدخل أو المهنة أو الثروة . فالماركسيون يميزون بين الطبقة البرجوازية وهى التى تملك مصادر الانتاج والبروليتاريا وهى التى لا تملك هذه الوسائل .

غير أننا يجب أن نميز بين « الطبقة » و « المركز » فماكس وبر يعرف الطبقة الاقتصادية تعريفا يشبه التعريف الماركسى ويتفق معه جنزبرج فى ذلك فالأساس الأول فى الطبقية عنده اقتصادى . أما المركز عند وبر فهو الشرف الاجتماعى أو التقدير الاجتماعى ، وليس من الضرورى أن يكون الحصول على الثروة مؤهلا للدخول فى جماعة تتمتع بمركز عال كالطبقة التى تسمى بالارستقراطية .

وتنبع صعوبة أخرى فى تحديد مفهوم الطبقة من الخلط بين الطبقة والشعور بالطبقية ففى رأى ماركس أن خبرات ذوى المواقف الاقتصادية المتشابهة تنزع إلى أن تؤدى إلى أن يتكون لدى أفراد الطبقة الواحدة اتجاهات وميول واحدة وشعور متبادل باهتماماتهم المتشابهة ، وليس من الضرورى أن يكون هناك تطابق

بين العضوية فى طبقة من الطبقات تبعـــا للمعايير الاقتصادية والشعور الذاتى بالطبقية .

على أى حال يقترح أوجبرن ونيمكوف اتخاذ المهنة أساسا للتقسيم الطبقى لأن المهنة تتصل بالدخل والتعليم والمعتقدات وما إلى ذلك .

ومهما يكون الأساس فى التقسيم فالطبقية حقيقة ثابتة وتهمنا من ناحية الفرص المتاحة لأفراد كل طبقة، وتهمنا لأن معظم الدراسات فى أسباب الجريمة تنتهى إلى أن غالبية المنحرفين والمجرمين يأتون من الطبقات المحرومة التى تمثل الطبقة الدنيا، والحرمان هنا اقتصادى وتعليمى وصحى واجتماعى وترويحى .. الخ

ويحاول العلماء تبرير ارتفاع نسبة الانحراف والجريمة بين أبناء الطبقة الدنيا على أساس أسلوب الحياة فى الطبقات المختلفة . ففى دراسة تيرانس موريس التى أجراها فى انجلترا كان من بين النتائج التى توصل إليها ارتفاع نسبة الجريمة بين أبناء عائلات العمال غير المهرة ، إذ تفوق النسبة بينها النسبة الموجودة بين أبناء شبه المهرة وذوى الياقات البيضاء أو الفنيون المهرة ، ويفسر موريس هذه النتيجة باختلاف أسلوب الحياة بين الطبقات وبالتالى اختلافها فى عملية تنشئة الطفل، ويقارن بين تنشئة الطفل فى الطبقة المتوسطة وتنشئته فى الطبقة الدنيا مبينا الاختلاف فى أساليب التنشئة. فبينما تتميز التنشئة فى الطبقة الوسطى بالضبط والرعاية والتنظيم وتعلم السلوك المناسب وعدم استعمال العنف فى العقوبة ، واللعب فى المنزل أو الحديقة ، ووحدة الأسرة فى الترفيه ونشاط العائلة المشترك المنظم تتميز التنشئة فى الطبقة الدنيا بعدم الضبط ، وعدم التنظيم فى التدريب على عادات ضبط المعدة والنوع . . . الخ ، والتذبذب فى المعاملة ما بين العقاب الشديد والتدليل الزائد ، واللعب فى الشارع مع غيره من الأطفال ، وعدم وجود الوحدة الأسرية إلا فى المناسبات النادرة ، وقضاء أفراد الأسرة لوقت فراغهم منفردين .

ويضمر كوهين الذى سبق أن أشرنا اليه فى حديثنا عن أثر العصابة الصغيرة زيادة نسبة الانحراف بين الطبقة الدنيا على أساس وجود ثقافة فرعية منحرفة تمد أبناء الطبقة العاملة بالحل المناسب للصراع مع معايير الطبقة المتوسطة .

غير أن هناك اجماعا بين الكتاب على أنه مما يبرز النتائج التى يتوصل اليها الباحثون فى دراساتهم، ان الدراسات تدور فى العادة على عينات متحيزة، إذ تدور على من وقعوا فى أيدى رجال الأمن وقدموا للقضاء ، وهؤلاء فى العادة من أبناء الطبقة الدنيا ، لأن أبناء الطبقات الأعلى إما بنفوذ الآباء أو بقدراتهم المالية للدفاع عن أبنائهم ينجحون فى إبعاد أبنائهم عن دائرة الإجراءات الرسمية إذ تسود الجريمة فى جميع الطبقات غير أنها فى الطبقات الممتازة غير منظورة .

٥ ـ فكرة الردع عن نفسه والجناح :

ركز والتر ركلس وآخرون معه الاهتمام على الدور الذى تلعبه صور الشخص عن نفسه أوفكرته عن نفسه فى تحديد سلوكه، فقاموا بسلسلة من الدراسات كانت الدراسة الانسانية فيها فى مدينة كليفلاند بولاية أوهايو وكانت تهدف إلى تحديد عناصر معينة فى عملية التنشئة تسمح لبعض الصبية بتبنى أنماط سلوكية غير جانحة بالرغم من تعرضهم لنفس البيئة الخارجية التى تعرضت لها مجموعة من الجانحين .

ثم اختار أفراد مجموعتين احداهما سوية والثانية منحرفة من حى فى المدينة ترتفع فيه نسبة الانحراف . وتم اختيار الأطفال من السنة السادسة الابتدائية على أساس حكم المدرسين فيما إذا كان الطفل عرضة لأن يحتك يوما بالبوليس أم لا. ضمت مجموعة المنحرفين ١٠١ طفلا منحرفا كانت لهم جميعا سجلات فى البوليس بينما ضمت المجموعة السوية ١٢٥ طفلا .

لقد بينت مقارنة أفراد المجموعتين على أداة تم تصميمها خصيصا لبيان فكرة

الطفل عن نفسه أن هناك فروقا لها دلالتها الاحصائية بين المجموعتين ، فيما يتعلق بالسلوك السوى ، وأنماط العلاقة الوجـــدانية بين أفراد الأسرة ، وأنماط الصداقات ، ونشاط وقت الفراغ . وأدى هذا إلى محاولة ايجاد التفاعلات النفسية والتفاعلات الأسرية التى تؤثر فى سلوك الطفل .

لقد وجد الباحثون عوامل يتميز بها الطفل المنحرف وأسرته ، منها أن الطفل المنحرف يرى نفسه شديد العدوان ويتوقع المشاكل . ومن الناحية السلوكية فهو أقل طاعة وكثير الهروب من المدرسة ، وله صداقات مع أطفال آخرين منحرفين ، والبيت مهدم (نفسيا واجتماعيا) ويفتقر إلى الوحدة ، والمشاركة العـــائلية التى تجمع أفراد الأسرة قليلة ، واشراف الأسرة على الأطفال المنحرفين ضعيف وكثيرا ما يعاقب من والديه ويبدو أن الوالدين لايهمها النشاط الذى يقوم به أولادهما .

أما الطفل السوى فقد ركز الباحثون اهتمامهم فى مقالات عديدة حول كل ما يساعد الأطفال السويين على استدماج السلوك والاتجاهات غير المنحرفة . وفى رأيهم أن الطفل الذى لا ينتظر له الجناح يرى نفسه على أنه فوق المتوسط فى القدرات ومستوى النشاط والعدوان . ويميل الى تجنب المشاكل بأى ثمن ، ويرى نفسه أنه مطيع ومواثم للقانون ويتقبل الاشراف الوالدى دون الشعور بالتقيد ، وعادة ما تكون حياته الأسرية متناغمة ووطيدة وتتميز بما يقدمه الوالدان من قيم غير منحرفة . وهناك دلالات قوية على اهتمام الوالدين بالولد واشرافهما عليه خاصة الأم .

وكانت النتائج العامة لهذه الدراسة وما تلاها هى أن الطفل الذى لاينتظر له الانحراف يتمكن أثناء عملية التنشئة من استدماج القيم غير المنحرفة ويتصاع للأدوار التى يتوقعها منه الأشخاص المهيمنين على حياته ، ويكافأ لكونه ولد

طيب . وتوحى هذه النتائج ببعض الآراء التى يبدو أنها تتصل بالعوامل المسببة لجناح الأحداث، أو لها أن الأهمية لاتتوقف أيضا ـ وهذا هو الأهم ـ على دلالة العوامل الداخلية . وثانيها ويتعلق بعملية التنشئة الاجتماعية. فبدلا من التركيز على العملية وحدها ، تشير هذه الدراسات إلى ضرورة التركيز على « أدوات التنشئة » أى الوالدين اللذين يتعلم الطفل عن طريقهما القيم والأدوار المتوقعة التى تنمى فيه الأمن الانفعالى .

٦ ـ الأسرة :

تدل نتائج كثير من الدراسات على أن الجانحين يأتون عادة من بيوت مهدمة اجتماعيا. ففى دراسة جلوك وجلوك كان ٤ر٦٠٪ من الجانحين من بيوت مهدمة تقابلهم ٢ر٣٤٪ من العاديين . وقد وجدت ميرل فى دراستها نسبا مماثلة كما بينت هذه الدراسات أن المنحرفين يأتون عادة من الأسر التى يكثر فيها الأبناء كما أثبتت هذه الدراسات خطأ الرأى الذى كان سائداً بأن نسبة كبيرة من المنحرفين وحيدوا آبائهم ، أو من الأبناء الأبكار أو من أصغر الأخوة .

ولكن يجب أن نلاحظ أن العوامل الاجتماعية فى تكوين الاسرة كالتهدم والمستوى الاجتماعى الاقتصادى وعدد أفراد الأسرة ... الخ قد فقدت أهميتها فى تفسير السلوك الاجرامى وبدأ التركيز على ديناميكية العلاقة بين الطفل وأفراد أسرته، إذ يتساءل المحللون النفسيون مثلا لماذا لاينتهى كل سكان الاحياء المتخلفة إلى الانحراف ؟ ولماذا لاينحرف كل الاولاد الذين يأتون من بيوت مهدمة أو كل أولئك الذين ينضمون إلى عصابات الصبيان ؟ وكيف تنتج الاسرة الواحدة أبناء محترمين وتنتج فى نفس الوقت أبناء من المجرمين ؟ وكيف تفسر العوامل الاجتماعية وحدها انحراف عدد من أبناء الطبقات الراقية؟ ويثير المحللون النفسيون هذه الأسئلة لبيان أن النظرية الاجتماعية فى حاجة إلى إضافة وتكملة .

لقد تناول الباحثون ديناميكية العلاقة بين الطفل ووالديه من زوايا عدة وسنعرض أهم الدراسات فى هذا المجال والزوايا التى تناولتها .

١ ـ علاقة الطفل العاطفية بوالديه وطرق الاشراف والعقاب :

من أهم الدراسات التى قورن فيها المنحرفون بالسويين دراسة جلوك وجلوك إذ أنها تعتبر من أكبر الدراسات وأهمها . إذ استمرت ما يقرب من عشر سنوات (١٩٣٩ - ١٩٤٩) تمت فى هذه الدراسة مقارنة ٥٠٠ طفلا جانحا وخمسمائة طفلا سويا وتم اختيارهم على أســـاس تكافؤ كل طفلين فى المجموعة السوية والمجموعة الجانحة فى السن ، والذكاء ، والأصل العنصرى ، والاقامة فى بيئة متخلفة . وكان من أهداف هذه الدراسة محاولة بيان العوامل المؤثرة فى الجناح ، فقامت عوامل شتى طب نفسية ، ونفسية ، واجتماعية ، وتكوينية وهى التى يفترض اسهامها فى السلوك الجانح .

وقد بين المؤلفان أنه من بين العوامل التى عولجت اتضح أن العوامـــل الاجتماعية المتعلقة بالأسرة من أهم العوامل التى تفرق بين الجانحين وغير الجانحين. فمن العوامل الاجتماعية الاربعين التى تضمنها تصميم البحث الاصلى تم اختيار خمس منها باعتبار أنها أكثر ارتباطاً بالسلوك الجانح وهذه العوامل هى :

١ ـ ترابط الاسرة
٢ ـ إشراف الام على الولد
٣ ـ تأديب الاب لابنه
٤ ـ حب الاب لابنه
٥ ـ حب الام لابنها

أما فيما يتعلق بترابط الأسرة فقد اتضح غيـاب الرابطة الانفعالية القوية التى يعبر عنها بالشعور « بالدفء » وكبرياء الأسرة ، والاعتمادات المتبادلة فى نطاق الجماعة الجانحة ويمكننا أن نرى أهمية ذلك فى أن الشىء الكثير من إحساس الفرد

بالأمن يتكون من خلال الولاء لجماعة الأسرة، ومن السند النفسى الذى يقدمه كل فرد فى الجماعة للآخر ، وقد وجد أن الجانحين محرومون من ذلك .

أما من ناحية إشراف الأم على الولد وجد المؤلفان أن إهمال الأم وتراخيها فى الرقابة من العوامل الهامة فى عدم التوفيق والنجاح . ويزداد حرمان الجانحين من الإشراف الأموى من غير الجانحين . فقد فشلت الأم فى المجموعة الجانحة فى تقسيم الرعاية البديلة المناسبة ، وعادة ما كانت تترك الطفل لنفسه .

ووجد الباحثان أن من أهم العوامل المميزة التى تفرق بين الجانحين وغير الجانحين تأديب الأب لابنه فى الجماعة المنحرفة اتسم تأديب الأب لابنه بالتعسف وكثرة العقاب الجسمانى .

وليس بنا حاجة إلى القول أنه فى مثل هذه الحالة نتساءل عن عاطفة الأب نحو ابنه .

لقد تبين من هذه الدراسة أن عدد الآباء الذين يقيمون علاقات مشبعة مع أولادهم فى المجموعة الجانحة يبلغ نصف عددهم فى المجموعة غير الجانحة .

أما آخر العوامل التى نحن بصددها فهو عاطفة الأم نحو الولد. وقد بينت هذه الدراسة أنه على الرغم مما يبدو عليه الآباء من عدوان سافر أكثر من الأمهات نحو أولادهم فى المجموعة الجانحة ، فان الطفل الذى يلقى حماية مبالغا فيها من الأم يقع تحت خطر يشبه خطر النبذ . وقد وجد أن أمهات الجانحين إما مبالغات فى الحماية أو غير مكترثات .

وقامت ابنى بينت Bennet بدراسة وظيفة الأسرة وتطوير الشخصية الجانحة.

قارنت فى هذه الدراسة بين ٥٠ جانحا و ٥٠ عصابيا ممن كانوا تحت العلاج فى

إحدى عيادات إرشاد الأطفال فى الريف البريطانى . حاولت التحقق من ٥٦ فرضا اشتقتها من الدراسات السيكولوجية والاجتماعية عن الجناح ونظريات التحليل النفسى عن تكوين الخلق . أما العوامل التى بحثت فقد كانت تلك التى تؤدى إلى انهيار تكيف الطفل (مثل الأعراض التى تظهر عليه وسلوكه ومشاكله الانفعالية) وتلك التى تميز محيطه الأسرى والعائلى ، بالاضافة إلى العوامل التى يعتقد أنها تلعب دورا هاما فى نموه وتاريخه الشخصى .

تراوحت أعمار الأولاد والبنات فى كل مجموعة من ٥ إلى ١٦ سنة كما تم اختيـــار أفراد المجموعتين على أساس التماثل من حيث السن والجنس ومستوى الذكاء . وتمت دراسة تاريخ الحالة المفصل لكل طفل بواسطة فريق من علماء الطب العقلى والمحللين وعلماء النفس التعليمى والمعالجين النفسيين للاطفال والباحثين الاجتماعيين الذى يكونون هيئة إرشاد الأطفال . وقد تمت بدقة دراسة العوامل المتعلقة بارضاع الطفل ونظامه وتغذيته ، وتدريبه ، والأمراض الجسمية وتقارير المدراسة ، والتكيف الاجتماعى ، وتاريخ تطور الأعراض الظاهرة للاضطراب ونوع العلاقة بين كل من الوالدين تجاه الآخر وتجاه الطفل . وقد استخدمت الأساليب الأكلينيكية الكمية للحصول على البيانات التى خضعت بالتالى للتحليل الاحصائى ، واستخرجت المعلومات فى تاريخ الحالة من المقابلات المتعددة والفحوص السيكومترية والتقارير المدرسية ومحاكم الأحداث ... الخ . وقد بذل جهد كى يميز بوضوح بين العصابى والجانح منعا للتداخل بينهما . أى أن الطفل إما أن يكون جانحا بشكل واضح أو عصابيا ولا يظهر أية مميزات أخرى . ورغم أن المجموعة الضابطة تتكون دائما من «أسوياء» إلا أن المجموعة العصابية فى دراسة بينت قد استخدمت كمجموعة ضابطة رغم أنها لا تعتبر «سوية» سيكولوجيا . غير أنهم لم يكونوا جانحين ، وبهذا الاعتبـــار فقط تم تمييزهم عن الجانحين إذ طالما أن

الغرض من البحث هو دراسة الأطفال الجانحين اعتبرت بينت المجموعة العصابية مجموعة ضابطة .

لن نستطيع الآن إلا أن نلخص النتائج الهامة فقط من بين نتائج الدراسة المستفيضة . ولا تنطبق هذه النتائج إلا على الجانحين فقط - إذ أنها تميز احصائيا الأطفال الجانحين عن العصابيين .

١ — يأتى الجانحون غالبا من عائلات غير مستقرة - بل ومتصدعة اجتماعيا وسيكولوجيا .

٢ — تتميز شخصيات الآباء بميول معادية للمجتمع ، ولهذا فغالبا ما ينقمص الجانحون بل ويحاكون أنماط السلوك الشاذة .

٣ — ينزع الوالدان الى عدم الاطراد فى معالجة وتهذيب احتياجات أطفالهم الغريزية والانفعالية (احباط زائد بتبادل مع اشباع زائد) ويعد هذا من ممزات تكوين الشخصية الجانحة .

٤ — ينزع الأطفال الجانحون الى أن تشوب علاقاتهم بالوالدين بالاضطراب الانفعالى . إذ يسودها الشجار ، والعدوانية والنمط السادى الماسوكى تماما كالعلاقة بين الوالدين .

٥ — تميل علاقة الوالدين إلى الاضطراب بسبب عدم النضج وعدم الاتزان وعدم تكافؤهما المشترك .

٦ — تزداد الفرقة بين الوالدين والطفل أو التفكك فى العلاقة الانفعالية بين الوالدين والطفل بين الجانحين عنها بين العصابيين .

٧ — للتفرقة أو التفكك بين سن الستة شهور والثانية عشر شهراً أثر بالغ الخطورة فى التنشئة الاجتماعية والنمو الانفعالى .

٨ — يعد النمو الخاطىء للأنا الأعلى من مميزات الجانحين إذ ينقصهم الاحساس بالخجل أو الذنب والضبط الكافى لدوافعهم الغريزية .

يتصل عدم تحمل الاحباط وعدم القدرة على ارجاء اللذة بالفشل فى نمو الضمير ، والواقع أن ما يميز الجانح ليس كونه عنيداً ، اندفاعيا ، لا يشعر بالخجل ، وكثير المطالب ، أو غير قادر على تحمل الاحباط خلال السنوات الأولى من نموه النفسى الجنسى ونموه الاجتماعى إذ أن كل هذا يعد من الأمور السوية بالنسبة لتطور أى شخص ، لكن كونه قد ثبت فى هذه الأطوار وظل بهذا غير ناضج فتستمر هذه الصفات غير الناضجة غير المعدلة خلال مراحل حياته المتأخرة . ويعد الافتقار إلى النموذج الوالدى ، والنقص فى كفاية العلاقة بالآخر ، والنقص فى التناسق فى التدريب على الطاعة ، متصلة تماما بالنمو المعيب للأنا الأعلى .

أوضحت لنا إذن بنيت فى النهاية أن هناك نمطا مميزا من « الحرمان الوالدى » والاهمال يميز الحياة المبكرة للجانح ويميزه بوضوح عن أولئك الذين يصبحون عصابيين . كما أوضحت انه مما لا يدع مجالا للشك أن ما يحدد تطور الطفل وسلوكه انما يوجد فى سنواته الأولى ، فى علاقته الأبوية أو العائلية .

ب ـ الحرمان الأمومى :

لقد أجرى جون بولبى الطبيب النفسى المسئول عن وحدة توجيه الأطفال بعيادة تافستوك الاكلينيكية ذات الشهرة العالمية فى لندن بأنجلترا كثيراً من البحوث عن النمو العاطفى الاجتماعى للأطفال وكيفية تأثره بالعلاقة المبكرة بالأم . ويرتبط المفهوم الشهير « بالحرمان الأمومى » ارتباطا وثيقا بعمل بولبى . ويشير هذا المفهوم إلى الانفصال الطويل للطفل

الصغير عن أمه والذى ينجم عنه الغذاء العاطفى الذى يحتاجه الطفل لنمو شخصيته نمواً سليماً .

وكتب د. بولبي تقريراً فى مقالة قصيرة عن بحث أجرى فى عيادة لندن الاكلينيكية لتوجيه الطفل والذى استقصى العوامل السيكوباثولوجية (النفسية المرضية) وخاصة تلك التى تنجم عن العلاقات القاصرة للطفل بوالديه ـ والتى نجدها فى نمو شخصية الاطفال الجانحين الصغار . وكان محور الدراسة ـ اللصوص الاحداث، إذ تعد السرقة أكثر الأعراض أو التهم التى تقترفها أغلبية الاحداث الجـــانحين .

وكانت الطريقة العامة فى بحث بولبي مقارنة الشخصيات والتاريخ الطبي النفسى لاربعة وأربعين (٤٤) لصا حدثا أحيلو إلى العيادة ، وأربعة وأربعين طفلا أحيلوا إلى العيادة أيضا ولكنهم لم يسرقوا وكانوا غير جانحين . وتراوح مدى العمر من الخامسة إلى السادسة عشرة ، واقترب متوسط الاعمار من العاشره . وشملت كلا الجماعتين بنين وبنات . واقترب متوسط ذكاء المجموعتين من المتوسط، وشابهت المكانة الاجتماعية الاقتصادية للمجموعة الجانحة تلك التى للمجمـــوعة الضابطة . واستخدم منهج دراسة الحالة الاكلينيكى الذى تكون من : تطبيق اختبارات نفسية ، والحصول على تاريخ طبي نفسى مفصل ، وتطبيق استفتاء على الأم والطفل لجمع البيانات التى حللت حينئذ تحليلا احصائيا .

أشارت نتائج هذا البحث أن ميدانا من الميادين الهامة جداً حيث يكون من المحتمل أن توجد العوامل العلية للجناح فى بيئة الطفل المنزلية الأولى . ووجد بولبي أن المنازل المتصدعة نفسيا واجتماعيا ، وانفصال الطفل عن أمه ، واتجاهات الوالدين العاطفية ذات دلالة للعلاقة بين شخصيات غـــير مستقرة . وكانت

شواهد انفصال الاطفال المبكر والطويل عن أمهاتهم أكبر بدرجة ذات دلالة احصائية بين الجانحين منها بين المجموعة الضابطة . ويذكر بولبي أن الانفصال الطويل يعد السبب الرئيسى فى فشل هؤلاء الاطفال الجانحين فى أن تنمو مقدرتهم لعقد علاقات بالموضوع مشبعة .ومن الناحية النفسية الديناميكية قد يقاسى الطفل صدمة عاطفية حينما ينفصل عن أمه أثناء النمو المبكر لعلاقته بها كموضوع . وهذا يجعل من الصعب عليه فيما بعد أن ينمى علاقات لبيدية بالآخرين . إن العمر الذى يحدث فيه الانفصال وطوله ودرجته وتكراره ، ونوع علاقات الطفل بالوالدين قبل الانفصال وخبرة الطفل مع الوالدين البديلين ، واستقبال الوالدين للطفل حينما تسترجع العائلة شملها تعد كلها متغيرات مهمة للغاية . وهى التى ستؤثر فى نمو العلاقات العاطفية بين الطفل ووالديه ، ويشير بولبي إلى أنه ليس ثمة شك فى أن هذا الانفصال المبكر له تأثير تدميرى على شخصية الطفل . يقول بولبي : « الانفصال الطويل للطفل عن أمه أو بديل الأم ، خلال السنوات الخمس الأولى من الحياة غالبا ما يعد من بين أسباب نمو الخلق الجانح وسوء السلوك الدائم » .

وبالرغم من أنه لم يكن ثمة فروق ذات دلالة احصائية فى اتجاهات الوالدين العاطفية تجاه أطفالهم بين جماعات الجانحين وغير الجانحين فقد وجد أن الأمهات اللاتى يتسمن بالنبذ والقلق وعدم الاستقرار والنكد ، والآباء الذين يكرهون أطفالهم ، يشيعون تماما فى كلا المجموعتين ، ويبدو أن تلك الاتجاهات الوالدية ذات دلالة علية، إذ أنها تخلق شخصيات عصابية وغير مستقرة وان لم تكن تنشىء طفلا جانحا بالذات .

صنف بولبي الاطفال طبقا لنموذج تكوين شخصية الطفل ، فوجد أن معظم الجانحين تضمهم فئة تنعت « بناقصى الحب » . ويتسم هؤلاء الاطفال بافتقارهم إلى الحب أو شعورهم بالدفء تجاه أى انسان ، وأنهم لايبالون بالعطف والعقاب

وينقصهم الاحساس بالعار والمسئولية ، بالاضافة إلى السرقة فمعظمهم يهربون من المدرسة ، وكذلك من المنزل ، وقد يعكس هذا مايكنونه من مشاعر تحوحيلهم المنزلية . وليس لهم أصدقاء حميمون ولا صلات عميقة فى علاقاتهم الانسانية ، ومن بين كل هؤلاء تجد أن الجانحين الذين يتميزون بخلق خال من الحب يعانون بصورة أكثر شيوعا ـ انفصالا طويلا من أمهاتهم .

أما من جهة النظر النفسية الدينامية فقد تخفى السرقة عناصر من العدوان والاشباع البيدى . ونستطيع أن نرى ما فى السرقة من مكونات ليبيدية قويةحينما تحبط رغبات الطفل الليبدية مكرا و حداعه إن السرقة تؤكد ذات الفرد وتوذى الآخرين. فالفرد الذى حرم من العطف عالما مايشعر بالحاجة لأن يؤذى الآخرين . إن أخذ الاشياء قد يمثل الحنين إلى العطف . فيعد هذا رمزا لتلقى العطف من موضوع الحب (أم الطفل) وحينما تحبط هذه الحاجة الليبدية ينشد الطفل العطف ويقرن العطف ـ رمز الحب ـ بالشىء الحقيقى . وهؤلاء الاطفال الجانحون غير قادرين على اقامة علاقات انسانية دائمة لعجزهم عن الشعور بالحب أو التعبير عنه وتصح هذه القدرة على اقامة علاقات بالموضوع مشبعة أكثر صعوبة حينما يكون ثمة فشل فى نمو الانا الاعلى الذى عادة مايضبط الدوافع الليبدية والعدوانية

ج ـ دور الاب فى عملية الجناح :

بينما نالت العلاقة بين الأم والطفل وأثرها على شخصية الطفل اهتماما كبيراً فى كل ما كتب عن جناح الاحداث كان دور الاب مهملا وغالباً ما يغفل تماما . لذلك يعتبر أندرى Andry عالم النفس بجامعة لندن ناقداً لرأى بولبى،فهو وان كان لايقلل من دور الام إلا أنه لايعتبر دور الاب ثانويا ، كما يناقش النظرية

القائله بأن السبب الأول للجناح هو « الحرمان الأمومى » كما يقول بولبى . لقد حاول أندرى فى بحثه مناقشـــة دور كل من الأم والأب كى يقرر ما إذا كانت الفروق بين الجانحين وغير الجانحين راجعة إلى الكفاية التى يؤدى بها الأب أو الأم دورهما .

تكونت العينة التجريبية من ٨٠ جانحا فى مؤسسة للصبيـان فى لندن وعينـة ضابطة مناظرة لها تتكون من ٨٠ طفلا غير جناح مختارين من مدارس ثانوية فى أحد أحياء لندن التى تتميز بنسبة عاليـة من الجناح . وتراوح السن من ١١ إلى ١٥ سنة . كما لم يكن بين الأطفال عصابيون أو ذهانيون ، وتراوحت نسبة الذكاء فى العينة من ٨٠ إلى ١٢٥ .

وكانت العينة من عائلات متكاملة عاملة وقد تمت مقابلة الأبوين لكل من ثلاثين ولدا فى الفئتين ، وصممت خطة الدراسة على أن تكون موضوعية ، كية متناولة لأحداث الماضى ، إذ أنها عنيت كذلك بخبرات الحياة الأولى بالنسبة لهؤلاء الأطفال .

أما عن طريقة جمع البيانات فقد كانت المقابلة الفردية ، وذلك على أساس مقابلة استثنائية شكلية توجه فيها مجموعة من الأسئلة على المفحوص أن يجيبها ، وتمت مقارنته نتائج كل مجموعة لبيان الفروق ذات الدلالة . بحث الاستفتـاء المجالات المتعلقة بالغرض الأساسى للدراسة كالحنو الوالدى والصله بين الوالدين والطفل والجو الأسرى ، والتدريب فى المهد وفى الطفولة المتأخرة ، بالاضافة إلى الانفصال بين الوالد والطفل ، والواقع أن النتائج قد أثبتت الفروض الأساسية فى الدراسة . فبالمقارنة بغير الجانحين وجد أن الجانحين يتميزون بما يأتى :

١ ــ حب أقل قوة ــ وخصوصا من جانب الوالدين (خاصة من الأب).

٢ — الافتقار إلى الاتصال المناسب سواء من الناحية البيئية أو السيكولوجية مع والديهم (خاصة مع الأب) .

٣ — جو أسرى أكثر توترا (يساهم فيه الأب بنصيب وافر) .

٤ — الافتقار إلى التدريب (خاصة من جانب الوالد) .

٥ — كان آباء الجانحين أقل دراية بالسلوك الجانح الذى يقترفه الأولاد ، وأقل فى التصرف ازائه .

كان من أهم نتائج هذه الدراسة أن الجانحين كانوا أميل لادراك قصور دور الأب عن الأم . بينما أدرك غير الجانحين أدوار الأبوين على أنها كافية بالنسبة لكل من الاثنين ، أما الفرق الاساسى بين الجانحين وغير الجانحين إذا ما أخذنا فى اعتبارنا دور الأب - فهو أن الجانحين يدركون أن دور الادب دور سلبى . وهكذا أظهرت كل هذه النتائج أن لدور الأب أهمية فى عملية الجناح أكثر مما كان معتقداً قبل ذلك. وانتهى أندرى إلى أن « الحرمان الابوى » تفس دلالة « الحرمان الامومى » فى تكوين الشخصيات الجانحة .

٧ ـ النظريات التحليلية :

١ ـ الجناح الكامن ، وضعف الانا :

فى سنة ١٩٢٥ نشر إيكهورن نتائج دراسة تعتبر من الدراسات الكلاسيكية ويصف فيها محاولة قامت بها جماعة مخلصة لتأهيل مجموعة من المنحرفين من ذوى السلوك الاعتدائى ممن يتسم سلوكهم بالكراهية التى قسمها ايكهورن إلى كراهية ظاهرة وكراهية مستترة . فالكراهية الظاهرة تتمثل فى الكراهية العلنية لكل ما فى البيئة دون محاولة التستر . والنوع الثانى مستتر يصعب التعرف عليه ، إذ يتميز أصحابه بالبشاشة والتظاهر بالصداقة ، غير أنهم منافقون وكذابون ويثيرون الرعب فى

زملائهم ولكن بطريق غير مباشر .

ويرى ايكهورن أن هذه الكراهية تنبع عن عدم اشباع الحب . وقد يكون هذا أمراً واقعا مع البعض ، بيد أنه مع البعض الآخر قد يكون نتيجة لشعور ذاتى من ناحية الطفل نفسه . وفى الحالة الاولى تكون الكراهية نتيجة لعدم الحب أما الثانية فقد يكون مصدر الكراهية هى فشل العلاقة الزوجية ومحاولة اشباع أحد الابوين حاجاته عن طريق الطفل ، فيشعر الطفل أن هذا الحب لم يعط له لذاته .

واتى ايكهورن بمفهوم « الجناح الكامن » وملخصه أن المجرم لايختلف فى تكوينه عن السوى ، إذ نولد جميعا بحاجات مضادة للمجتمع ، وإذا تركنا لها العنان ستؤدى بنا حتما إلى الاجرام ، بيد أننا نتمكن من تكوين هذه الضوابط ، بعبارة أخرى بلغة التحليل النفسى يعانى المجرم من ضعف « الانا » أو أن فاعلية الانا قد قلت نتيجة للصراع الانفعالى .

لقد كانت دراسة ايكهورن حافزا لفرتز ردل ووايمان إلى القيام بتجربة مماثلة لتجربة ايكهورن ولكن على نطاق ضيق . إذ قاما فى سنة ١٩٤٦ باختيار عشرة من الصبيان الذين يتميزون بالسلوك الاعتدائى المشبع بالكراهية وتهيئة منزل لهم لدراستهم وعلاجهم . استمرت تجربتهم حتى يونيه ١٩٤٨ ، واستمر معهم حتى النهاية خمسة من الصبيان ، وتراوحت أعمار الصبيان ما بين ثمان سنوات وعشر سنوات . ويصف ردل ووينمان فى كتابيهما خصائص الانا الضعيف لهؤلاء الصبية فيما يلى :

عجزهم عن مجابهة الخوف أو القلق أو الشعور بعدم الامن دون الانفجار فى الاعتداء . وعدم استطاعتهم تحمل شعورهم بالذنب لما يقومون به دون انفجار

فى الاعتداء . وإذا ما واتتهم فرصة للترويع والمتعة البريئة عجزوا عن مقابلة الموقف بسلوك غير التخريب والتحطيم . فاذا ما بذلت الجهود لضبطهم عجزوا عن اختزان ذكريات عن المواقف السارة ، وليس لديهم صبر لتأجيل مطالبهم ، فاذا أرادوا شيئا أرادوه حالا دون انتظار ، ودون تبصر فى الضيق الذى يسببونه للاخرين أو للمواقف المزعجة التى يخلقونها بأنفسهم . واذا ما تحبب اليهم فرد وحاول اجابة مطالبهم فلاحدود لهذه المطالب يمكنهم التوقف عندها ، إذ تخرج مطالبهم عن حدود المعقول ، فاذا لم يجب الفرد لهم مطالبهم فالاستجابة السريعة هى الكراهية والبغض . كما أنهم لايعرفون متى يطلبون المساعدة من الآخرين . وليس هذا عن عزة أو كبرياء إذ لم يتحرجوا عن طلب أى شىء مهما كان طفليا. إن مشكلتهم هى عدم قدرتهم على مجـــابهة المواقف بأنفسهم . ومن مشاكلهم الكبرى عجزهم عن مجابهة مواقف الفشل بل ومواقف النجاح إذ لابد أن تؤدى هذه المواقف إلى التخريب والتحطيم ، أما أخطاء الغير غير المعتمدة فهى ليست إلا تعبيراً عن كراهية المجتمع لهم التى لابد أن تقابل باعتداء وانتقام .

غير أن هذا ليس كل شىء إذ مما يبدو غريبا ومتناقضا تلك القوة والعبقرية التى يستخدمون بها طاقاتهم النفسية وتسخير هذه القوة تحت إمرة الاندفاع والحقد والتخريب . إذ تعجز الانا عن مجابهة هذه الاندفاعات فتسخر الانا نفسها للدفاع عن اشباع هذه الدوافع وبأى ثمن . ويريان أن الانا لدى هؤلاء الأطفال كانت تخوض معارك أربع :

١ ـ معركة ضد الضمير الذى يعتبر العدو الداخلى لاندفاعاتهم وحرية التعبير عن الحقد والبغض والتخريب .

٢ ـ معركة فى سبيل البحث عما يساند سلوكهم المنحرف :

٣ ـ معركة دفاعية تقوم بها الانا ضد التغيير .

٤ ـ معركة ضد من يحاولون ادخال التغيير .

أما كيف يتكون « الجناح الكامن » كما أسماه ايكهورن أو « التكوين المعادى للمجتمع » كما اسمته فرايدلندر فقد افترضت فرايدلندر أن العوامل البيئية التى تؤدى إلى اضطراب فى التعديل المبكر للغرائز والعلاقة بالموضوع (أنظر شرح تكوين الانا فى الفصل السابع) . وأدمجت تحت العوامل البيئية الفرقة لأى مدة خلال الثلاث سنوات الأولى وقلة اهتمام الام أو ضيق وقتها ، بالاضافة إلى عيوب شخصية الأم التى تؤدى إلى عدم الاضطراد فى سلوكها فى الفترة الهامة ـ فترة التغذية والفطام والتدريب على وظائف الاخراج. إذ يعتمد الطفل خلال هذه الفترة تماما على أمه لتشبع له كل مطالبه ، ثم يتعلم الطفل أن يرجىء شعوره باللذة ، ويتعلم كذلك أن يقبل اشباعا بديلا . والواقع أن لهذه العملية من ارجاء اللذة وابدالها أهمية كبرى فى تكوين الانا، فمن المسلمات أن أول تمييز بين الانا والعالم الخارجى يتم نتيجة لعدم اجابة كل مطالب الطفل ، فيشعر بالاحباط ، ويظهر التوتر والقلق والمشاعر غير السارة وهذا أمر حتمى لكى تنفصل الانا عن العالم الخارجى . وتحمل الطفل لمثل هذا الاحباط يسهل انتقال الطاقة من الغرائز إلى الانا ويحدث التعديل فى الدوافع الغريزية البدائية المضادة للمجتمع . وهذا يتم جزئيا فى السنوات الثلاث الأولى ، غير أنه يشترط لنجاح هذه العملية أن تكون العلاقة بالأم سوية، إذ تعتبر هذه العلاقة نمطا لكل علاقاته بعد ذلك ، ولهذا فان أى اضطراب فى نموها وتكوينها ينتج بالضرورة اضطراب فى قدرة الطفل على تكوين علاقة بالموضوع. وهكذا يفسر السلوك المنحرف نتيجة للانحراف الكامن وعجز الطفل المنحرف عن السيطرة على الدافع وعجزه عن الانصراف عن اللذة المباشرة وتأجيلها إلى ما بعد .

أما أنا فرويد فقد ناقشت أيضا مفهوم ايكهورن عن الجناح الكامن وقد عالجت العوامل التكوينية كما فعلت فرايدلندر غير أنها لم تنظر اليه « كتكوين خلق معادى للمجتمع » بل اعتبرته « عدم تكيف اجتماعى » وينتج فى رأيها عن توقف فى « التكيف الأولى للواقع » وبهذا يعتبر التصرف غير اجتماعى عندما تستمر الانماط الطفلية للوظائف العقلية إلى ما بعد الفترة التى تقتضى تطور نمو الاحساس بالواقع، ففى البداية لايرى الطفل البيئة الخارجية إلا امتداداً للعائلة ثم يتعلم متأخراً كيف يميز بين العوامل الخارجية عن تلك المتعلقة بالأسرة . فاذا لم يحدث هذا التمييز أصبحت البيئة امتدادا لميدان المعركة التى بدأت فى المنزل يواصل فيها معركته التى تكونت قبل ذلك فى علاقاته الأسرية .

أما فرويد فيرى أن تخييلات الطفل فى المرحلة الفمية (السنة الاولى من العمر) والمرحلة الشرجية (السنة الثانية من العمر) والمرحلة القضيبية (من سن ٣ إلى سن ٥) عادة ما تكبتها الانا . وفى فترة الكمون (من سن ٥ إلى ٦ إلى ما قبل المراهقة) تتركز الجنسية الطفلية السابقة والنزعات الاعتدائية فى صورة ذهنية واحدة أو تخييله واحدة تجد مخرجا جسميا لها فى العادة السرية . وهى فى العادة لا تؤدى إلى سلوك ظاهر أو تكيف مضطرب يتناقض مع الواقع . غير أن عدم تقبل هذه الرغبات الغريزية يؤدى إلى أن تقيم الانا عمليات دفاعية ضد العادة السرية والنشاط الجسمانى المتصل بها . غير أنه من وقت لآخر تقوم رغبات ممارسة العادة السرية بتأكيد رغبتها، وتغلب الانا على أمرها، كما تغلب العمليات الدفاعية التى تحصن الانا بها نفسها وتقيم بالتالى أى عمليات دفاعية أخرى جديدة . فإذا ما كان الكفاح ضد العادة السرية ناجحاً ولكن بشكل شاذ تحرم التخييلات من أى تعبير جسمانى ،

---

(١) أنظر مراحل النمو الجنسى عند فرويد فى الفصل الخاص بالشذوذ الجنسى والجرائم الجنسية .

وتتحول القوى الاعتدائيه والليبيدية إلى مجال الانا ونشاطها وغالبا ما يتم ذلك بطريقة عنيفة . ويرى فرويد أن التعبير الخارجى عن التخييلات بالاعتداء إنما هو بديل للعادة السرية ويمثلها

ب - ثغرات الانا الاعلى :

يرى جيفن وجونسون وليتن أن التحليل النفسى التقليدى قد أنصب على العصاب الفنسى والانا الاعلى القاسى . وفسر السلوك اللا اجتماعى على أنه نتيجة للشعور بالذنب الحاد الذى يعانى منه المريض إما للصراعات الداخلية التى عنده ، أو لقوة الغرائز التكوينية التى يعجز عن السيطرة عليها . وكانت التحريمات سواء فرضت من الخارج أو مستدمجة فى داخل الشخص تؤدى إلى تكوين الشعور بالذنب الذى يتطور إلى عصاب نفسى . وبالتدريج بدأ الاعتراف بأن التحريمات عنصر هام فى تكوين الشعور بالامن، إذ أن بعض التصرفات فى المجتمع يجب أن يتم تحريمها لأن هناك أنواعا من السلوك إذا تم التعبير عنها لابد وأن تولد الشعور بالذنب عند أى فرد .

وترى جونسون أن السلوك المضاد للمجتمع ليس بالضرورة نتيجة لسيطرة الشعور بالذنب أو الدوافع الغريزية على الفرد والتى يعجز الانا الاعلى عن ضبطها إذ أن هناك حالات يكون فيها الانا الاعلى سويا غير أنه لا يعمل فى بعض المناطق المحددة للسلوك ، وتسمى هذه المناطق غير العاملة للأنا الاعلى « ثغرات الانا الاعلى » . وترى أن الصراعات العصابية المعتدلة أو الحادة كثيرا ما تصاحب وجود هذه الثغرات . ومثل هذا النقص أو العيب فى أداء الانا الاعلى لوظيفته يقتصر فى العادة على مجال أو اثنين فقط من مجالات السلوك ولا ينتشر بشكل واسع

ويرى جيفن وجونسون وليتن أن نمو الانا الاعلى السوى يتضمن تقمصا الوالد الذى يكون له دلالته فى حياة الطفل وذلك عن طريق امتصاص سلوك هذا الوالد الظاهر والخفى ، كما يتضمن استدماجاً داخلياً لصورته (الطفل) عند هذا الوالد الشعورية واللاشعورية . فالام السوية مثلا تتوقع أن ينمو طفلها ويصبح مواطنا صالحا . فهى لا تتغاضى عما يقوم به الطفل من أفعال كالسرقة أو غيرها على أنها أمور تافهة سوف يتخلص منها الطفل إذا كبر . كما أنها لاتتجسس على طفلها أو تراقبه لترى ما إذا كان يطيع أوامرها ويقوم بتنفيذها ، لأنها تعلم أنه سوف ينفذ هذه الاوامر ، وإذا ما صادف أنه لم يفعل لسبب أو لآخر فانها تعالج الامر مباشرة بدون أى شعور بالذنب . وتشير جونسون أنه قد يكون لدى الطفل فى مرحلة الكمون عدة سبل للاستجابة للمنبهات وذلك على مستوى الانا ، غير أنه إذا تدخل الانا الاعلى فى هذه العمليات فهذا يعنى أنه قد نشىء تنشئة سوية، على أنه لايوجد إلا احتمال واحد فقط واستجابة واحدة فقط. ويصدق هذا على عمليات مثل قمع دوافع السرقة والهرب والقتل .

أما الام العصابية فهى تراقب فى العادة ابنها لترى ما إذا كان قد نفذ ماأمرته به أم لا . وبذلك تنقل الام إلى طفلها الشعور بأن هناك احتمالا آخر للاستجابة ، وأن هناك صورة أخرى عنه فى ذهنها . وهذا له دلالته فى تكوين الانا الاعلى فى المرحلة الاولى ، لأن عملية التقمص لدى الطفل لا تتضمن سلوك الام الظاهر وحده، ولكن تتعداها إلى تقمص شخصيتها ككل . لهذا لا يستدمج الطفل داخليا الاتجاهات الاجتماعية المضطردة وحدها ، لكنه يستدمج أيضا المشاعر التى لم يتم التعبير عنها ، والمتناقضة ، والمضادة للمجتمع .

وعادة ما تعتبر الام الشخصية الوالدية الاكثر أهمية وإن كان الاب دائما فى الصورة بشكل ما . وقد وجد أنها لاشعوريا تشجع السلوك اللاخلقى والمعادى

للمجتمع عند الطفل . فما يبدو على وجه أحد الوالدين من تعبيرات ، يتضح منها للطفل أنها تعبر عن حالة معادية للمجتمع ، كما تبين له أن هذا الوالد يستمتع بسرور وهو فى هذه الحالة ، وإن كان ذلك بطريق غير مباشر . وما دام الطفل راغباً فى عمل ما يرضى الوالد ، فإن الطريق يكون ممهداً لمزيد من التعبير بالتنفيذ من جانب الطفل وعادة ما تكشف الأسئلة التى تحمل الشك من جانب الوالد للطفل رغبة الوالد اللاشعورية ، فيحاول أن يتمشى مع تلك الرغبات بعمل نفس الشىء الذى يحذر منه . بعكس الوالد السوى الذى يتميز بثقة وطيدة لاشعورية لا يتطرق اليها الشك فى أن طفله سرعان ما يحمل نوايا الاب ويجعلها نواياه فى ضوء فكر الوالد عنه . ويرجع وجود الرغبات العصابية عند الوالد المتشكك إلى شىء من العجز عن إشباعها حاليا فى عالم الكبار أو إلى خبرات معاقة فى طفولة الوالد نفسه أو ربما للسببين معاً . وبذلك يكون « الاستثار » الذى يقوم به الوالد فى ابنه ، أن يقوم الابن باشباع رغبات الاب اللاشعورية بسلوكه .

وبالاضافة إلى تحقيق الطفل لنزعات الوالد المكبوتة عن طريق ما يقوم به من أفعال عدوانية ، فان سلوك الاب قد يدل على النزعات العدوانية التدميرية التى تكون لدى الوالد نحو طفله . وترى جونسون أن العدوان الوالدى له مظهران أحدهما موجه ضد النفس والثانى موجه ضد الطفل ، ويتكون ما يقابل هذين المظهرين عند الطفل . فالتخيلات والآمال والمخاوف التى يعبر عنها الوالدان كاستجابة لسلوك طفلها هى العوامل الاساسية التى تؤثر فى الطفل وتدفع به إما إلى السلوك السوى أو السلوك غير السوى .

نموذج للبحث العلمى فى أسباب الجريمة :

نختتم هذا الفصل بالنموذج الذى قدمه الاستاذ ويذى بجامعة متشجن فى

اجتماع لجنة الخبراء فى سيكلوجية المراهقة وعدم التكيف الاجتماعى فى باريس فى صيف ١٩٦٢ والذى سبق الاشارة إليه [١] لقيام البحوث فى أسباب الجريمة. إذ يقسم فيه ويذى النظريات السابقة وغيرها إلى أربعة مستويات طبقا للأسس التى تقوم عليها هى: الاجتماعى ، والاسرى ، والتنظيم النفسى الداخلى، والجسمانى . ويرى أنه يمكن بالتالى تقسيم كل من هذه المستويات طبقا لأربعة متغيرات هى:

١ — فقدان المعايير

٢ — صراع المعايير

٣ — والمعايير المضادة للمجتمع

٤ — والحرمان من الامكانيات والسبل . فعلى سبيل المثال مثلا يمكننا وفقا لذلك فحص أى نظرية من النظريات التى تؤكد الناحية الاجتماعية كسبب من أسباب الانحراف . إذ يمكننا أن نحدد فيما إذا كان الانحراف يبدو أنه يعزى أساسا إلى فقدان المعايير أو صراع المعايير أو وجود المعايير المضادة للمجتمع أو الحرمان من الامكانيات والسبل . ولا يعنى هذا التقسيم أنه لا يوجد تداخل بينها ، وهذا ما قد يظهره إخضاعها للتحليل العاملى مثلا . ويظهر هذا النموذج موضحا فى الجدول التالى .

وقد وضع ويذى وزملاؤه طبقا لهذين النموذجين . برنامجا البحث يهدف إلى فحص الفروض المتعلقة بها وذلك بالنظر إلى العوامل والمستويات والتفاعل بينها .

---

(١) تقرير منظمة اليونسكو عن اجتماع الخبراء فى سيكلوجية المراهقة وعدم التكيف الاجتماعى . عرض وتحليل الدكتور سعد جلال . المجلة الجنائية القومية يوليو ١٩٦٣ المجلد السادس

	نظريات تؤكد ان السلوك المنحرف نتاج للتنظيم الاجتماعى	نظريات تؤكد العوامل الجسمانية كمسببات مثل انخفاض معامل الذكاء والنمط المفضل وما اليها	نظريات تؤكد ان السلوك المنحرف نتاج للتنظيم الاسرى	نظريات تؤكد ان السلوك المنحرف نتاج التنظيم النفسى الداخلى
القول بان الانحراف يعزى الى فقدان المعايير	رأى دور كايم (فقدان المعايير) ، وأريكسون ، وشو وماكاى (ليس للشباب الخارج على القانون مستويات للمعايير) .		فشل الأسرة فى اقامة معايير وتقييدها لحرية الطفل — جلوك وجلوك ، وهيبول وجنكنز .	يمر المراهقون بخبرة انتفار الدور (بدلا من تحقيق الذات) . الافتقار إلى المعايير الداخلية نتيجة لتدليل الآباء — أيكهورن . ضعف الذات العليا ، واضطراب الهى وضعف تكوين الأنا — ردل ووينمان .
القول بان الانحراف يعزى الى صراع المعايير	صراع الثقافات الجزئية — الايطاليون فى الولايات المتحدة .		اعطاء الاسرة للطفل أنماطا من المعايير متضاربة — كوهين . القلق الناتج عن الدور الجنسى والاحتجاج الذكرى — وبلسكي .	الضعف الناتج عن الصراع بين قيم متفاوتة تضربها الفرد، الرغبة اللاشعورية فى العقاب — ابراهام .

obeikandl.com

القول بان الانحراف يعزى الى المعايير المضادة للمجتمع .	زمالة المنحرفين الآخرين سذرلاند . الثقافة الجزئية الاجرامية — كوهين وأوهلين وكاوارد . طبقة العاملين من المنحرفين تحارب الطبقة غير العاملة فى المجتمع — كريسى وملسر وكفاراسيوس .		صراع الأنا لوجود آباء مجرمين — ماكورد . ضعف النموذج التربوى وبالتالى ضعف الأنا العليا — فرويد .	تعديد السلوك المنحرف — جلاسر وركلس . تقمص معايير الآباء المضادة للمجتمع — ماكورد .
القول بان الانحراف يعزى الى حرمان الفرد من شىء ما .	تحديد المجتمع لأهداف المنحرفين — شو وماكاى . التباين بين السبل المشروعة التى فى المتناول والأهداف الثقافية — كوهين . الثقافة الجزئية المنحرفة تكافح من أجل أهداف الطبقة المتوسطة — أوهلين وكلوارد .		السكوماتية نتيجة الحرمان من الأمومة — روبينوفتش . الآباء المتراخين عند جلوك وجلوك الافتقار إلى تصرب المثل — ماكورد .	ضعف الأنا نتيجة لقوة دوافع الهى — رول روبنسون . النظرية النيورولوجية الاجتماعية والتلف اللاحق بالمخ — ماكورد وماكورد . الضعف السيكوباتى روبينوفتش وبندر

obeikandl.com

ويعتقد ويذى أن انحراف الطفل فى أحد المجالات كالأسرة مثلا يؤدى إلى انحرافه فى المجالات الأخرى . لذا يجب ألا يقتصر العلاج على المجال الذى يبدو فيه الانحراف ، بل يجب أن يتجه فى الوقت نفسه إلى المجالات الأخرى مثل المدرسة والنادى وما إلى ذلك. فمن الفروض التى يحاولون إخضاعها للفحص الفرض التالى : « تصبح معايير القرناء ذات أهمية خاصة إذا حدث عـــدم التوافق فى المدرسة والأسرة » . ويوجد بحث آخر يدور حول فرض يتعلق بالفروق الجنسية، وهـذا الفرض هو « يحاول المجتمع تأكـيد أدوار خاصة فى السلوك ، إذ يحاول الصبيان تركيز دوافعهم وأدوارهم حول مفهوم التحصيل فى المنـافسة مع الآخرين ويعنى هذا أن الصبى المنحرف يحاول التوصل إلى النجـاح بالسبل غير السوية هذا بينما يبدو أن البنات أقل تأثرا بعوامل التحصيل إذ يتأثرون بدرجة أكبر بالعلاقات المتبادلة .

وفى ختام التقرير طالب ويذى بالدراسات الطولية والدراسات التى تتناول قطاعات ثقافية مختلفة حيث توجد العوامل التى يمكن تناولهـــا وحتى يمكننا بناء نماذج للنظريات ليتمكن العلماء فى العالم من إجراء البحوث فى ضوئها .